

السجل العلمي

لمؤتمر الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي آثاره العلمية والدعوية

المجلد الثالث

الأربعاء والخميس
٢٤-٢٣ ربيع الأول ١٤٤١



(12)

جهود الشيخ السعدي في التفسير البلاغي
أ.د. إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

الرعاية

مصرف الإنماء
alinma bank



جهود الشيخ السعدي في التفسير البلاغي

أ.د. إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

أستاذ البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا بحث بعنوان (جهود الشيخ السعدي - رحمه الله - في التفسير البلاغي). سيسهم هذا البحث في الكشف عن جهود العلامة السعدي - رحمه الله - في التفسير البلاغي من خلال استقراء وقفاته البلاغية المبتوثة في تفسيره القيم تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، في عرض وصفي، تحليلي.

محاوولا الوقوف على العديد من تلك الوقفات التي وقفها الشيخ - رحمه الله - تعالى معاشياً أجواء الآيات الكريمة في تلك الوقفات. مشيراً إلى السمات الأسلوبية في عرض الشيخ - رحمه الله - مما استدعى نمطاً كتابياً خاصاً عُرف به. وقد جاء البحث في مقدمة، وفصلين، وخاتمة، فثبت المصادر والمراجع:

الفصل الأول: حديث الشيخ - رحمه الله - عن بيان لغة القرآن الكريم، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الفصاحة.

المبحث الثاني: اللسان العربي.

المبحث الثالث: الحجج.

المبحث الرابع: اصطفاء اللفظ.

الفصل الثاني: حديث الشيخ - رحمه الله - عن عادات القرآن الكريم، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: إرادة العموم.

المبحث الثاني: الاستغراق.

المبحث الثالث: الحذف للتعميم.

المبحث الرابع: المشترك اللفظي.

وذكرت في الخاتمة النتائج، والتوصيات التي يوصي بها البحث.

راغباً من خلال ذلك كله الوصول إلى الدور الوظيفي لتلك الوقفات في شمول
مباحث عديدة من أبواب البلاغة في علومها الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع، وأثر
تلك الوقفات على المتلقي.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى
آله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول: حديث الشيخ -رحمه الله- عن بيان لغة القرآن الكريم

المبحث الأول: الفصاحة

قال السبكي -رحمه الله-: «ليس بين حقيقتي الفصاحة والبلاغة عموم وخصوص، بل هما كلٌّ وجزءٌ، فالبلاغة كلٌّ، ذو أجزاء مترتبة. والفصاحة جزءٌ غيرٌ محمول»^(١).

ومن هنا جاء حديث الشيخ السعدي -رحمه الله- في غير ما موضع من تفسيره عن الفصاحة، ومما يُلحظ أنه -رحمه الله- تعالى يوظف الفصاحة في التأكيد على كونها من أكبر المؤثرات في حجج القرآن الكريم، وأنها معين على مقصود القرآن الكريم في الهداية والدلالة، ومن ذلك ما جاء في حديث الشيخ عن قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾^(١٠٤) الأنعام: ١٠٤، حيث قال: «لما بين تعالى من الآيات البينات، والأدلة الواضحات، الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد، نبه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار، لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة، لأنها صادرة من الرب، الذي ربي خلقه، بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها، تبين الآيات، وتوضيح المشكلات. قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بتلك الآيات، مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فإن الله هو الغني الحميد.^(١)

(١) عروس الأفراح ١ / ٧٤

(٢) تفسير الكريم الرحمن: ٢٦٨

فالفصاحة والبيان في الكتاب العزيز من الأسباب التي تسهّل مهمة الوصول إلى القلوب، وتيسر الطرق إلى بلوغ المراد.

وفي معرض أهمية الفصاحة يشير الشيخ -رحمه الله- إلى أن الانتصار لرأي في التفسير دون آخر يقوم فيما يقوم عليه باعتبار الفصاحة في الموضوع، وأن من شروط الترجيح أن لا يخالف التوجه للرأي ما كان علة سنن الفصاحة القرآنية، ذلك أن الفصاحة دليل على المعنى، ومرشد إليه، وهذا ما نجد عند استبعاد الشيخ -رحمه الله- رأياً في إحدى الآيات اعتماداً على أن ذلك الرأي مما تأباه الفصاحة، ولا يتماشى معها حتى الأخذ به، وهو ما جاء في حديث الشيخ عن موضع ذكر -رحمه الله- أنه مما أشكل عليه فهمه أشد الإشكال، فقال في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقْنَاكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) يس: ٤١ - ٥٠ أي: ودليل لهم وبرهان، على أن الله وحده المعبود، لأنه المنعم بالنعمة، الصارف للنعمة، الذي من جملة نعمه قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال كثير من المفسرين: المراد بذلك: آباؤهم.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي: للموجودين من بعدهم ﴿مِنْ﴾ أي: من مثل ذلك الفلك، أي: جنسه ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ به، فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن، لأن النعمة عليهم، نعمة على الذرية. وهذا الموضع من أشكل المواضع عليّ في التفسير، فإن ما ذكره كثير من المفسرين، من أن المراد بالذرية الآباء، مما لا يعهد في القرآن

إطلاق الذرية على الآباء، بل فيها من الإيهام، وإخراج الكلام عن موضوعه، ما يأباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده.

وتمَّ احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم، لأنهم هم من ذرية بني آدم، ولكن ينقض هذا المعنى قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي: لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريرا للمعنى، تأباه فصاحة القرآن. فإن أريد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ الإبل، التي هي سفن البر، استقام المعنى واتضح، إلا أنه يبقى أيضا، أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى، لقال: وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَاهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال: الضمير عائد إلى الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال^(١). فكون فصاحة الكلام تأبى هذا النوع من التكرار حمل الشيخ على جعله مرجوحا، وحمله على الذهاب إلى رأي آخر لا يتعارض وفصاحة الكلام التي بها نزل الكتاب العزيز.

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٦٩٦

المبحث الثاني: اللسان العربي:

غير خاف أن للقرآن الكريم منزلة لغوية، وأثرًا بيانيًا، في علو شأنه، ومدى إعجازه، وفي كونه معجزة سيدنا محمد النبي العربي صلى الله عليه وسلم؛ وفي ذلك يقول النهشلي: «أفضل كلام وأعزه وأكرمه، وأعظمه بركة، وأعوده بصالحه كتاب الله العزيز الذي عجزت عنه خطباء العرب في عنفوانها، وشعراؤها في أبنائها فهو يجلّ عن سجع المتكلمين، ويعظم من وزن المتكلمين من الخطباء والشاعرين وأنه معجزة باقية لأكرم أنبياء الله، وخيرته من خلقه، صلى الله عليه وسلم، ورحم وكرم»^(١).

جاء في العديد من مواضع التفسير الإشادة باللسان العربي الذي به نزل القرآن الكريم، يأتي ذلك مثلاً في حديث الشيخ -رحمه الله- عن صدر سورة يوسف عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿الرَّئِيسَ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الْمُبِينُ﴾^(١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ^(٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَاقِلِينَ^(٣) يوسف: ١ - ٣؛ حيث يقول الشيخ: «يخبر تعالى أن آيات القرآن هي {آيات الكتاب المبين} أي: البين الواضحة ألفاظه ومعانيه. ومن بيانه وإيضاحه: أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة، وأبينها، المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة، وكل هذا الإيضاح والتبيين

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٤) أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه»^(٢)، فاللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم، هو أشرف الألسنة، وقد اشتمل على البيان لواضح في نفسه، المبين لغيره، القادر على إيصال الدلائل والهدايات، التي بها يخرج الغافلون عن غفلتهم، وبه يعقل العاقلون ما

(١) الممتع في صنعة الشعر: ١١

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٣٩٣

يُخاطبون به.

وزيادة في شرف هذا اللسان العربي يرد في موضع الم قسم عليه، والمقسم هو الله سبحانه وتعالى، وذلك بقوة اللسان العربي صفة لما أقسم عليه الله سبحانه؛ وهو كونه قرآنا عربيا، يقول الشيخ -رحمه الله- في ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا الزخرف: ٣﴾، هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿إِنَّا عَلَّمَكُم تَقْوَاتِكُمْ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان^(١).

ويشير الشيخ -رحمه الله- في موضع آخر إلى القسم بالقرآن المبين؛ فيقول: «هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه أنه أنزله ﴿فِي مُبَرَّكَةٍ﴾ الدخان: ٣»^(٢).

فالقسم بالقرآن المبين على أمر نزول القرآن المبارك في تلك الليلة المباركة، وهذا مما يدخل في البيان المستوحى من القرآن الكريم. وبفضل هذا اللسان المبين غدت الآيات مبينات، واضحات، لا لبس فيها ولا خفاء، فهي آيات دالة على الشرائع والآداب، ويكون تكون المبيّنات خافيات؟! وهذا ما أشار إليه الشيخ -رحمه الله- تعالى في معرض حديثه عن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَأَلَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾﴾ النور، أي: لقد رحمنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات، أي: واضحات الدلالة، على جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحمودة، والمعارف الرشيدة، فاتضحت بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزّل من

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٧٦٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٧٧١

كامل علمه، وكملت رحمته، وكامل بيانه، فليس بعد بيانه بيان ﴿لَيْهَاتِكَ﴾ بعد ذلك
﴿لَيْهَاتِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مِنْ حَمٍ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾
الأنفال^(١)، فتلك الآيات المبيِّنات دالة على كمال بيان كلام الله تعالى أكمل بيان
وأوضحه.

وهذا البيان الجليّ جاء في أكمل صورته، وأحسن تراكيبه، وأعظم دلالاته؛ حتى
إنه خلا من القيود اللفظية؛ ليتم له الإطلاق اللفظي الدال على الإطلاق المعنوي،
حتى لا يقيد قيد، ولا يحده حدّ، وليذهن الذهن مع إطلاقه كل مذهب، وليدخل في
دلالاته البيانية كل ما أمكن أن يدخل.

وهذا الذي نقرأه في فحوى كلام الشيخ -رحمه الله- عند حديثه عن قوله
تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٦﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا
وَيَحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَى الْكٰفِرِيْنَ ﴿٧٠﴾﴾ يس ﴿وَقُرْآنٌ﴾ أي: ميسن لما يطلب بيانه. ولهذا
حذف المعمول، ليدل على أنه ميسن لجميع الحق، بأدلته التفصيلية والإجمالية،
والباطل وأدلة بطلانه، أنزله الله كذلك على رسوله^(٢)؛ فالنكتة البلاغية البيانية في
حذف المعمول -والله أعلم- إرادة العموم في دلالاته من كل وجه، مجملا كان ذلك
الوجه أم مفصلاً.

وهو من البيان الذي تكفل الله تعالى بحفظه حفظاً يشمل اللفظ والمعنى، وقد
نصّ على ذلك الشيخ -رحمه الله- في حديثه عن قوله تعالى ﴿...﴾ القيامة، حيث
قال: «أي: بيان معانيه، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون»^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٥٧١

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٦٩٨

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٨٩٩

المبحث الثالث: الحجاج

الحجاج بؤرة اهتمام الدارسين منذ أن تطورت الدراسات البلاغية... التي اهتمت بالحجاج في الخطابات الفلسفية، والأخلاقية، والاجتماعية، والقانونية، والسياسية^(١).

وقد أورد الشيخ مقدمة في تفسيره، وأشار فيها إلى قضية بلاغية مهمة، هي الحجاج، فقال: «قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد نثيت فيه وأعيدت»^(٢)، وذكر الشيخ منها الحجاج؛ بقوله - رحمه الله -: «وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباء متثورا.

ورأيته يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأوجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازا غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر»^(٣).

ويشير الشيخ - رحمه الله - في كليات التفسير إلى الموطن الذي لا يحسن فيه الحجاج؛ فيقول: «ومن الكليات؛ أنه إذا وضح الحق وظهر ظهورا جليا، لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل

(١) ينظر: الحجاج في الخطبة الرملية لمسلم بن محمود الشيرزي، أخوزمية: ٩١

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٣٤

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٣٨

المجادلات»^(١).

وفي إحدى تطبيقات الشيخ - رحمه الله - على هذه الكليّة يقول: «فإذا زعموا - مع هذا - أنه افتراه، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال، الإعراض عنهم، ولهذا قال: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ هود: ٣٥، أي: ذنبي وكذبي، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا بَرِيءٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هود أي: فلم تستلجون في تكذبي»^(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٩٤٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٣٨١

المبحث الرابع: اصطفاء اللفظ:

« أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ هِيَ لُبُّ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَزِبْدَتُهُ، وَوَأَسْطَتُهُ وَكَرَائِمُهُ، وَعَلَيْهَا اعْتِمَادُ الْفُقَهَاءِ وَالْحُكَمَاءِ فِي أَحْكَامِهِمْ وَحُكْمِهِمْ، وَإِلَيْهَا مَفْزَعُ حُذَاقِ الشُّعْرَاءِ وَالْبُلْغَاءِ فِي نِظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ، وَمَا عَدَاهَا وَعَدَا الْأَلْفَاظِ الْمَتَفَرِّعَاتِ عَنْهَا وَالْمَشْتَقَاتِ مِنْهَا هُوَ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهَا كَالْقَشُورِ وَالنَّوَى بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَطْيَابِ الثَّمَرَةِ، وَكَالْحِثَالَةِ وَالتَّبَنِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى لُبُوبِ الْحِنْطَةِ»^(١).

ومما يحسن الوقوف عليه في وفتات الشيخ البلاغية ما يدخل ضمن إشاراتِهِ إِلَى اصْطِفَاءِ اللَّفْظِ الْقُرْآنِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- عَنْ اصْطِفَاءِ لَفْظِ (الْيَقِينِ) بِقَوْلِهِ: «أَتْنَى اللَّهُ عَلَى الْيَقِينِ، وَعَلَى الْمَوْقِنِينَ، وَأَنْهُمْ هُمُ الْمُتَتَفِعُونَ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَالْآيَاتِ الْأَفْقِيَّةِ. وَالْيَقِينُ أَحْصَى مِنَ الْعِلْمِ، فَهُوَ: الْعِلْمُ الرَّاسِخُ، الْمُشْمَرُ لِلْعَمَلِ وَالطَّمَأِينَةُ»^(٢).

ومثل ذلك ما جاء في حديثه -رحمه الله- في تقرير مسألة عقديّة من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، وبنى رأيه في الانتصار للرأي الصواب على اصطفاء لفظ قرآني دون غيره من الألفاظ المقاربة، ذلك اللفظ هو لفظ (الإدراك)؛ حيث قال -رحمه الله-: «قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ الْإِنْعَامُ: ١٠٣؛ لِعَظَمَتِهِ، وَجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ، أَيْ: لَا تَحِيطُ بِهِ الْأَبْصَارُ، وَإِنْ كَانَتْ تَرَاهُ، وَتَفْرَحُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَفَنَفِي الْإِدْرَاكِ لَا يَنْفِي الرُّؤْيَا، بَلْ يَثْبِتُهَا بِالْمَفْهُومِ. فَإِنَّهُ إِذَا نَفَى الْإِدْرَاكَ، الَّذِي هُوَ أَحْصَى أَوْصَافَ الرُّؤْيَا، دَلَّ عَلَى أَنَّ الرُّؤْيَا ثَابِتَةٌ.

فإنه لو أراد نفي الرؤية، لقال «لا تراه الأبصار» ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في

(١) المفردات: ٥٥

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٩٤٢

الآية حجة لمذهب المعطلة، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم»^(١).

ويشير -رحمه الله- إلى اصطفاء لفظ (المجيد) في تأييد قراءة الكسر، فيقول -رحمه الله- مبيّنًا سبب ذكر العرش دون غيره من المخلوقات: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ البروج، أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجر، يكون {المجيد} نعتا للعرش، وأما على قراءة الرفع، فإن المجيد نعت لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها»^(٢).

ومما يدخل في الاصطفاء اللفظي ما أشار إليه الشيخ -رحمه الله- تعالى في الربط بين التعبير بلفظ (الرب) وبين أدعية الأنبياء المصطفين عليهم الصلاة والسلام، ومناجاتهم ربهم تعالى، فيقول -رحمه الله-: «و(الرب): هو المرابي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم. وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم. ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة»^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٢٦٨

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٩١٩

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٩٤٥

الفصل الثاني: حديث الشيخ -رحمه الله- عن عادات القرآن الكريم

المبحث الأول: إرادة العموم

يشير الشيخ -رحمه الله- تعالى إلى أصول وكميات من أصول التفسير وكمياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن، ومن هذه الأصول والكميات ما هو شديد الصلة قوية الاتصال بالقضايا اللغوية عامة والبلاغية منها خاصة؛ ومن ذلك حديث -رحمه الله- عن إرادة العموم حيث يقول: « النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعم، وكذلك المفرد المضاف يعم، وأمثلة ذلك كثيرة. فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفردا مضافا إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبارة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه»^(١).

وهذا الذي نصّ عليه النحويون في مصنفاتهم، وقعد له الشيخ هنا -رحمه الله-
ورحمهم^(٢).

وفي الجانب التطبيقي نرى ذلك في مثل حديث الشيخ -رحمه الله- عن إرادة العموم الوارد في الأسلوب الشرطي الوارد في قوله تعالى ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٩٤١

(٢) ينظر مثلا: أمالي ابن الحاجب ٢ / ٥٣١، ومغني اللبيب عن كتب الأعراب: ٩٤

يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴿البقرة: ١٩٧﴾؛ حيث قال -رحمه الله-: «أتى بـ (من) للتخصيص على العموم، فكل خير وقربة وعبادة، داخل في ذلك، أي: فإن الله به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير، وخصوصا في تلك البقاع الشريفة والحرمان المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها، من صلاة، وصيام، وصدقة، وطواف، وإحسان قولي وفعلي»^(١).

فالشيخ -رحمه الله- يستثمر الدلالات اللغوية المستقاة من التراكيب والقوانين النحوية يستثمر ذلك في إيراد قواعد كلية للمفسر، مثل الاعتماد على عموم اللفظ لا خصوص السبب متى ما ساعد على ذلك التركيب اللغوي وفق القواعد النحوية. وهو الذي يشير إليه البلاغيون كثيرا.

المبحث الثاني: الاستغراق:

ومما أشار إليه الشيخ -رحمه الله- تعالى في معرض حديثه عن أصول وكليات من أصول التفسير وكلياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن استغراق المعاني المستفاد من بعض التراكيب النحوية، وهو الذي تتحدث عنه علماء النحو^(٢)، وهو الذي نصَّ عليه بقوله: «ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني»^(٣).

وهذا ما جاء في تطبيقات الشيخ على الآيات الكريمة؛ ومنها حديثه في معرض تقسيم الإيمان إلى كامل وناقص، وأن الكامل يُتوصل إلى لفظه بمعونة (ال) الاستغراق؛ فيقول -رحمه الله-: «ومن نقصت طاعته لله ورسوله، فذلك لنقص

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٩٢

(٢) ينظر مثلا: شرح قطر الندى وبل الصدى: ١١٣، وشرح التصريح على التوضيح: ١ / ١٨١

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٩٤١

إيمانه، ولما كان الإيمان قسمين: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيماناً دون ذلك ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الأنفال: ٢، الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح: ٥^(١).

ومثل تطبيقه ذلك في لفظ العسر الوارد في سورة الشرح في قوله تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح: ٥؛ حين قال -رحمه الله-: «وتعريف (العسر) في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير (اليسر) يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له»^(٢).

ومثل ذلك ما جاء في تطبيق الشيخ -رحمه الله- على لفظ (الحمد)؛ لاشتماله على المحامد كلها بمعونة الاستغراق؛ حيث يقول -رحمه الله- تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ الصافات: ١٨١؛ لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الصافات: ١٨٢، الألف واللام، للاستغراق، فجميع أنواع الحمد، من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربي بها العالمين، وأدرّ عليهم فيها النعم، وصرف عنهم بها النقم، ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكونهم، وفي جميع أحوالهم، كلها لله تعالى، فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم»^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣١٥

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٩٢٩

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٧٠٩

المبحث الثالث: الحذف للتعميم

ومما جاءت الإشارة إليه في الكليات التي نص عليها الشيخ -رحمه الله- تعالى ما ذكره من « أن حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والقريئة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لا بد منها في ثبوت الحكم»^(١).

وهو الذي تناوله في تطبيقاته على الآيات الكريمة؛ وفي مطلعها حديثه عن حذف متعلقات الهداية في لفظ (هدى)، في قوله -رحمه الله- تعالى: «الهداية لا تحصل إلا باليقين قال: قَالَ تَعَالَى: ﴿هُدًى لِّلَّذِينَ هَدَىٰ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن خِفْتُمْ﴾ البقرة، والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال {هُدًى} وحذف المعمول، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفرعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم، في دنياهم وأخراهم»^(٢).

ونحو ذلك ما جاء في حديثه -رحمه الله- تعالى في الحديث عن حذف مفعول (الخوف)؛ حيث قال: «وقوله ﴿فَإِن خِفْتُمْ﴾ البقرة: ٢٣٩، حذف المتعلق، ليعم الخوف من العدو، والسبب، وفوات ما يتضرر العبد بفوته فصلوا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَجَالًا﴾ البقرة: ٢٣٩ ماشين على أرجلكم»^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٩٤٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٤٠

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٩٥١

ومن تطبيقات الشيخ - رحمه الله - تعالى على الحذف لإرادة التعميم ما جاء في حديثه عن حذف مفعول الإنفاق؛ ليعم ما يمكن أن يدخل فيه، وذلك حين قال - رحمه الله - : « وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء. ولعل هذا سر قوله: قَالَ تَعَالَى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ النساء: ٣٤، وحذف المفعول ليدل على عموم النفقة»^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن: ١٧٧

المبحث الرابع: المشترك اللفظي:

أشار الشيخ -رحمه الله- تعالى إلى ظاهرة لغوية وردت في القرآن الكريم، هي ظاهرة المشترك اللفظي، «ولا غرابة أيضًا في اشتراك عدد من الحروف في تأدية معنى واحد؛ لأن هذا كثير في اللغة، ويسمى: المشترك اللفظي»^(١)، وضرب الشيخ على المشترك اللفظي مثالين اثنين في كليات التفسير، الأول من هذين المثالين المشترك في لفظ (أمة)؛ حيث قال: «لفظ (الأمة) في القرآن على أربعة أوجه: يراد به (الطائفة من الناس) وهو الغالب. ويراد به (المدة)، ويراد به (الدين) و (الملة)، ويراد به (الإمام) في الخير»^(٢).

والمثال الآخر في لفظ (استوى)، حيث بين الشيخ -رحمه الله- اختلاف هذا اللفظ باختلاف العوامل المصاحبة له، وهو في ذلك يتأزر بإزار اللغة في إثبات رداء العقيدة، قال في ذلك -رحمه الله- تعالى: «لفظ (استوى) في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عدي بـ (على) كان معناه العلو والارتفاع، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الأعراف: ٥٤، وإن عدي بـ (إلى)، فمعناه قصد، كقوله: ﴿قَالَ تَعَالَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ البقرة: ٢٩، وإن لم يعد بشيء، فمعناه «كَمُلٌ»، كقوله ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ القصص: ١٤^(٣).

وهو المعنى الذي أشار إليه بالفاظ قريبة من هذا الوارد في الكليات؛ حيث قال -رحمه الله- في تفسير سورة البقرة: «وقوله قَالَ تَعَالَىٰ ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿﴾ البقرة.

(١) النحو الوافي ٢ / ٥٤٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٩٤٤

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٩٤٥

{أَسْتَوَى} ترد في القرآن على ثلاثة معان: فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها، الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَأَسْتَوَى﴾ القصص: ١٤، وتارة تكون بمعنى (علا) و (ارتفع) وذلك إذا عدت بـ (على) كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الأعراف: ٥٤، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِئَسْتَوِيَ عَلَى ظُهُورِهِ﴾ الزخرف: ١٣، وتارة تكون بمعنى (قصد) كما إذا عدت بـ (إلى) كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ البقرة: ٢٩، فخلقها وأحكمها، وأتقنها، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٩^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٤٨

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله أن يسّر الوصول إلى خاتمة هذا البحث الذي شُرّف بحديثه عن بعض الجهود للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسيره، -رحمه الله- ووالدينا والمسلمين، وما كان هذا البحث إلا إشارات في عبارات، إذ ليس المقصود الاستقصاء والقراءة الشاملة لجهود الشيخ -رحمه الله-، إنما هي إلماحة لبعض ما ورد من جهود الشيخ البلاغية، وما في تفسير من كنوز لغوية.

وقد توصل البحث إلى الوقوف على عدة نتائج، منها:

- ١- الإمام الكبير للشيخ -رحمه الله- تعالى في علوم اللغة.
 - ٢- قدرة الشيخ -رحمه الله- على التنظير اللغوي والبلاغي.
 - ٣- تمكن الشيخ -رحمه الله- من إنشاء الكليات العامة التابعة عن معاشته لكتاب الله تعالى.
 - ٤- طواعية قلم الشيخ -رحمه الله- في الربط بين القواعد النظرية والدراسة التطبيقية لفنون البلاغة.
- وإني أوصي في ختام هذا البحث بعدة توصيات:
- ١- اقتفاء أسلوب الشيخ -رحمه الله- في تيسير المعلومة التفسيرية.
 - ٢- الإفادة من الدرس التطبيقي لفنون البلاغة على منهج الشيخ -رحمه الله- في سهولة العبارة، وعدم الإطالة.
 - ٣- دراسة منهج الشيخ -رحمه الله- في توظيف الدرس البلاغي في الحجاج.
 - ٤- الإفادة من الوجوه اللغوية في الانتصار لمعتقد أهل السنة والجماعة، وإفراد ذلك بتطبيقات الشيخ -رحمه الله-.

٥- إعادة قراءة هذا السفر العظيم قراءة دقيقة، نفسية، واجتماعية، وتربوية، وبلاغية،
وعقدية، وتفتيق المعاني من تلك القراءات المتأنية.
رحم الله الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمة واسعة وأميتي ووالدينا جميعا
والمسلمين، وجعل هذا البحث مثقلا لميزاني بالحسنات، وميزان والدي وميزان
الشيخ السعدي ومن قام على هذا المؤتمر المبارك ووالديهم جميعا، والمسلمين.
والحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

- أمالي ابن الحاجب، عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب الكردي المالكي، دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار - الأردن، دار الجيل - بيروت، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
- الحجاج في الخطبة الرملية لمسلم بن محمود الشيرزي. أخوزهية، د. رائدة محمود، و د. ثناء نجاتي عياش، مجلة العلوم العربية، مجلة علمية فصلية محكمة، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الحادي والثلاثون ١٤٣٥ هـ
- شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهرى، زين الدين المصري، وكان يعرف بالوقاد، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م
- شرح قطر الندى وبل الصدى، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، الطبعة الحادية عشرة، ١٣٨٣
- شروح التلخيص وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي، دار الكتب العلمية
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر - دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥

- مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني - تحقيق صفوان عدنان داوودي - دار القلم - دمشق - الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- الممتع في صنعة الشعر. النهشلي، عبد الكريم النهشلي القيرواني، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، جمهورية مصر العربية
- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة